دانتي والاسلام

(تمهيد) اعلن الاستاذ أسين بلاسيوس Palacios استاذ اللغة العربية في جامعة مدريد قبلاً ان دانتي الشاعر الفلورنسي الذائع الصيت قد حاكى التقاليد الاسلامية في الرواية الالهية The Divine Comedy . فاشتد الجدال : فمن جاحد منكر ومن ناصر مشايع . لهذا رأينا للموضوع من مساس بحياتنا الفكرية في الشرق وتسبباً لفكرة الأب الاستاذ أسين انقل لقراء « المقتطف » مجمل افكاره وبراهينه مستعيناً بكتابه المدعو « الاسلام والرواية الالهية » الذي نقله الى الانكليزية المستر سندرلند Sinderland وطبع في لندن (سنة ١٩٢٦)

والاستاذ اسين كما قالت مجلة المشرق الغراء « أحد الاعلام المتخصصين في فلسفة الاسلام وفي طرائقه الصوفية وله في الشاعر دانتي رأي مخالف لمذهب العلماء في أمر الرواية الالهية » فلا غرو اذن ان أثار كتابهُ الجدل في عالم الفكر العربي لانهُ ذهب الى ان الشاعر البقري مدين في كثير مما كتبهُ للثقافة الاسلامية عامة والتقاليد الصوفية خاصة . والاب أسين ليس أول من فكّر في هذا الامر الخطير ولكنهُ أول من برهن على صحته بالاساليب العلمية والبراهين المحسوسة . ولقد ظن قبله الاستاذ Blachet في مقالهِ « المصادر الشرقية للرواية الالهية » ان الاسلام كان من المؤثرات التي عملت على انتاج فكرة هذه الرواية ولم يقم الدليل على صحة رأيه حتى قام الاب أسين بهذه المهمة الشاقة

بحث الأب اسين أولاً في ما تقتضي المعراج والاسراء من الاثر في الرواية الالهية اذ بعد ان اختلطت قصة المعراج Ascension بقصة الاسراء Nocturnal Journey وصارتا واحدة عكف عليها الصوفيون يدرسونهما ويأوّلون تفاصيلها وكان اشهرهم في هذا المضمار محي الدين بن العربي المُرسي الذي توفي قبل مولد دانتي بخمس وعشرين سنة . ثم رجح بعد البحث الطويل ان رسالة الغفران التي املاها عبقرية ابي العلاء المعري كانت ايضاً من المصادر التي اشتقت منها الرواية الالهية

واما ما جاء به ابن العربي في كتابه «الفتوحات المكية» فقد جاء مشابهاً الى درجة عظيمة لما جاء به دانتي . كما ان سورة الاعراف القرآنية في تفاصيلها مهدت السبيل الى فكرة جهنم والمطهر أو الصراط والمحشر

الاّ ان هناك زمرة من العلماء يرون ان الرواية منقولة عن التقاليد النصرانية والاقاصيص والخرافات التي كانت شائعة في اوربا في القرون الوسطى. لذلك عمد الاب اسين الى هذه الاقاصيص ويرهن انها مستقاة من التقاليد الاسلامية العربية

ولاثبات نظرية التقليد وجب بيان كيفية الاتصال والانتقال وهذه زبدة البحث:

﴿ ١ ﴾ اثبات الاتصال بالاسلام: بعد ان استقر العرب في البلاد المجاورة واخذوا يوطدون اركان الملك إتجهت انظارهم نحو العلوم وتمكنت افكارهم في اوربا النصرانية وشعوبها عن الطرق التالية:

ا: التجارة. اتسع نطاق التجارة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر اتساعاً سريعاً وكانت تنقل من بلدان الشرق الاسلامية الى اوربا الشمالية عن طريق نهر الفولغا Volga لخليج فنلندا فبريطانيا فغيرها من بلدان اوربا. وهذا ثابت بدليل وجود النقود العربية في تلك الاصقاع الى يومنا هذا. ثم تحولت الى منطقة البحر المتوسط في القرن الحادي عشر واصبحت تنقل الى اوربا عن طريق جنوه والبندقية. لذلك جاء تجار كثيرون من الطليان وسكنوا في موانئ الشرق الاسلامية

ب: الحجاج. شُنّت حركات الحج الى فلسطين إثر الفتح الاسلامي بيد انها استأنفت نشاطها بعد تأثيل الملك واستقامة النفوذ والسلطان فعقد شارلمان مع الخليفة هارون الرشيد معاهدة مشهورة شيدت على اثرها الاديرة والكنائس في فلسطين وازداد عدد القادمين للحج اليها فبلغت احدى القوافل قبيل الحروب الصليبية (١٢٠٠٠) نفس

ج: الحروب الصليبية. ونظن ان لا حاجة بنا الى تبيان اثرها غير اننا نكتفي بالاشارة الى ان النصارى قد اصطنعوا عادات المسلمين حتى في اساليب الحكم والجندية والنظام في مملكتهم اللاتينية في القدس. وقلدوا المسلمين ايضاً في الطعام واللباس

د: المبشرون. قام النصارى على اثر ما لاقوه من الفشل في الحروب الصليبية التي انهكت قواهم وذهبت بالعظام من رجالهم بحرب اخرى في ميدان العقل والروح — قاموا بحرب دينية تبشيرية. ولقد كانت ارسالية آباء الفرنسيسكان والدومنيكان أول الارساليات فاضطروا الى درس اللغات العربية وآداب المسلمين وعقائدهم وكانت اهم نقط الاتصال صقلية واسبانيا

هـ: صقلية. هاجم النورمان ابان القرن التاسع سواحل اسبانيا وتوالت هجماتهم

على غيرها من الشواطىء حتى استقروا في القرن الحادي عشر في صقلية وظلوا فيها الى القرن الثالث عشر . وقد كان بلاط الملك روجر الثاني في بلرمو غاصًّا بالنصارى والمسلمين لا فرق بين واحد منهم وآخر . وكانوا يعرفون العربية واليونانية . فالتقى العلم المسلم بالفارس النورماني والنبيل الفرنسي بالعظيم الايطالي فتحاكت افكارهم وتبودلت آراؤهم . كيف لا والملك نفسه كان يحسن العربية تكلمًا وقد حاكى المسلمين في لباسه وبعض عاداته وانتقلت هذه بالتدريج الى شعب بلرمو وصقلية فايطاليا

على ان أهم عصور هذه الجزيرة وأكثرها رخاء هو عصر فردريك ملك صقلية والمانيا الذي استصحب معهُ حين اعتزم السفر الى فلسطين جماعة من المسلمين والعرب . ولما توفي كتب على قبره بالعربية . فاضطرب البابا وغيرهُ من ملوك اوروبا لهذا السلوك . وفردريك هذا هو مؤسس جامعة نابولي Naples سنة ١٢٢٤ وقد جمعت بأمره المؤلفات العربية وترجمت مؤلفات ابن رشد وأرسطو وأرسلت نسخ منها الى باريس وبولونيا ولشدة رغبته في العلم راسل علماء المسلمين في عصره وبادلهم الرأي

و : اسبانيا . خمسة اجيال انقضت من القرن الثامن الى القرن الثاني عشر ونصارى اسبانيا تحت تأثير العرب المسلمين فلما كان القرن التاسع أخذ اهل قرطبة Cordova ينسجون على منوال المسلمين في اتخاذ الحريم واكل المأكولات الشرقية ولبس الملابس الاسلامية . وازداد شغفهم بالشعر العربي والاقاصيص وانغمسوا في فلسفة الاسلام ودينه وظل هذا الاختلاط يزداد حتى ان اهل قرطبة المدعوين Mozarabes استعملوا اللغة العربية في الكتابات الرسمية الى اواخر القرن الثاني عشر وقد كانوا دواماً يسافرون نحو الشمال فينقلون افكارهم الى حيث ذهبوا

يضاف الى هذا ما فعلهُ اليهود واسرى الحروب والسفراء في زياراتهم . والخلاصة اننا لو وددنا ان نذكر كل ما تركهُ العرب في اسبانيا واوروبا من أثر لوجب علينا ان نستعيد في اذهاننا تمدن العرب وحضارتهم ازاء شعوب اوروبا نصف البربرية

ولما استردَّ الاسبان بلادهم وقرضوا دولة العرب اصبحت طليطلة مركزاً لنشر الثقافة الاسلامية فترجمت كتب ارسطو عن العربية مع شروح الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد . وفي عهد الفونس الحكيم اسست المدارس في مرسية Mercia مسقط رأس ابن العربي واشبيلية وفيها تعلم الطلاب من نصارى ومسلمين واشتد

الجدل الديني فيما بينهم. الى هذا نضيف اثر المدرسة العربية اللاتينية التي شيدت في اشبيلية لدرس الطب والعلوم وفيها حاضر المصحون العرب تلاميذهم الاسبان من النصارى

﴿ ٢ ﴾ انتقال التقاليد الاسلامية الى اوربا عامة ودانتي خاصة

(١) لقد قلنا فيما تقدم ان الاستاذ Blachet في كتابه « المصادر الشرقية لرواية الالهية » كان اول من اشار الى اصل الرواية الاسلامي وانه عجز عن بيان ذلك بالبرهان المحسوس وان الاستاذ آسين أول من نجح في هذا المضمار

فهو الذي برهن على ان الاقاصيص التي ذاعت في ايطاليا والمانيا وفرنسا واسكندنافيا وارلندا — مثل رحلة القديس براندان Brandan واحلام القديس بولس والقديس مترخ Matrich مستقاة من التقاليد الاسلامية وبيّن انها وصلت الى اوروبا عن طريق الحجاج والتجار والمحاربين والمبشرين والرحالين واسرى الحروب والعلماء والمدارس . . . الخ . والذي يزيدنا يقيناً ان هذه التقاليد النصرانية التي عدّها بعضهم من اوليات الرواية الالهية لم تبرز الى الوجود الاّ بعد انصرام القرن العاشر بينما التقاليد الاسلامية وما كان منها مختصًّا بالحياة الاخرى وما اضيف اليه من الآداب والاحاديث والشروح — وجدت قبل هذا التاريخ . بل نحن على يقين من ان قصة المعراج وغيرها من التقاليد الاسلامية كانت شائعة في الاندلس واليك الامثلة

(١) كتب المدعو St. Eulagius كتاباً سماهُ Apologeticus Martyrum وذكر فيه مختصراً لحياة الرسول . وفي كتابات (الموزراب) ذكر كثير للاحاديث النبوية واما Abbot Esperemindeo فقد بحث في حياة النبي وشرح معجزاته وبسط تفاصيل هذه المعجزات . وقد وجد كتاب St. Elogius الآتف الذكر في دير لير Leire في نافار Navarre مما يثبت ان القصة وصلت الى شمال الاندلس

في سنة ١١٤٣ م كتب Robert of Reading الذي كان في كلية المترجمين في طليطلة آيات من القرآن باللاتينية. وقد امر الفونس الحكيم (العاشر) بترجمة القرآن في القرن الثالث عشر فترجمه احد رجال الدين في طليطلة (واسمهُ Marco) . والف (Archbishop Rodrigo, Jimenez de Rada of Toledo) تاريخاً للعرب (Historia Arabum) لا يزال موجوداً للآن ومقامهُ يرجع الى ان قصة المعراج ومعجزات الرسول قد كتبت فيه . واسر احدهم وجيء به الى غرناطة وبعد ان تخلص من الاسر اصبح اسقفاً (St. P. Paschal) والف كتاباً اقتبس فيه آيات من

القرآن والحديث نبوية وخاصة عن صحيح مسلم واقتبس من قصة المعراج التي سماها Elmiregn ثم كتب القصة كاملة في الفصل الثامن من القسم الاول من هذا الكتاب. وقد بين الاستاذ اسين مشابهة ما نقل في هذا الكتاب لما كتبهُ دانتي

(ب) كل ما تقدم بيان لانتشار هذه التقاليد في اسبانيا ولكن كيف انتقلت الى ايطاليا؟ (١) ان الاتصال بايطاليا كان متيناً ليس فقط عن طريق اسبانيا بل عن طريق بيادُ تحت عنوان « الاتصال بالاسلام » سابقاً . ونزيد على ذلك هنا قولنا انهُ بعد فتح اشبيليه جاءها نبلاء الطليان وتجارهم واحتلوا شارعاً فيها وهذا هو St. Peter Pascha الذي عرف القصة عاش في روما نفسها ما بين ١٢٨٨ — ١٢٩٢ م وبعد ذلك بتسع سنوات (١٣٠١ م) زار الشاعر الفلورنسي البابا في روما كسفير عن بلدتهِ فلورنسا (٢) ولقد كان دانتي تلميذاً وصديقاً للمدعو Brunetto Lattini الذي الف كتاب Tesoretto ثم كتاب Tesaro وفي هذا الاخير نجد ما يدل على ان تسميم الفلسفة منقول عن ابن سينا وكذلك فيهِ حياة للرسول ومعجزاتهِ. وهذا الرجل هو الذي ارسل سفيراً عن فلورنسا سنة ١٢٦٠ م الى طليطلة حيث مدرسة الترجمة ونحن على يقين من انهُ حال رجوعهِ من اسبانيا الف كتابيهِ المذكورين

﴿ ٣ ﴾ انجذاب دانتي نحو الثقافة الاسلامية : لقد بيّنا كيف ان دانتي عاش في وسط اسلامي في ثقافته، اسلامي في تمدنهِ، وبقي علينا ان نثبت هل هو وجد في الثقافة الاسلامية ما يجذبهُ اليها ؟ فقد اتفق العلماء الذين انقطعوا لدرس دانتي على انه كان متعطشاً للمعرفة . وقال احدهم U. Cosmo ان دانتي وعى معارف عصرهِ . وما كانت معارف عصرهِ في الغالب الاّ اسلامية فلا يعقل ابداً ان لا يقف دانتي على هذه الثقافة التي سيطرت على القاصي والداني في ذلك الزمان

في هذا الوسط عاش دانتي وهو مسوق بدافع حب المعرفة من جهة ودافع الرأي العام من الجهة الاخرى للارتشاف من مناهل الاسلام . وقد ذهب بعضهم الى ان الرجل كان له الملم بالعربية او العبرية لانه حين يضع كلمات لا معنى لها يلاحظ فيها مسحة من الجذور السامية ولكن العلماء لم يتفقوا على هذه النقطة . ويقول الاستاذ أسين ان هذا الانجذاب لم يكن دينيًّا فدانتي مسيحي عريق في المسيحية وانما هو ميل علمي تهذيبي

﴿ ٤ ﴾ دانتي ومحي الدين بن العربي : قال (نردي) إن في وصف دانتي للحياة الاخرى وفي اتجاه افكاره نحواً من الروح الاسلامية وخاصة ما كان لهُ علاقة

بابن العربي . لانهُ كان من اتباع المذهب الاشراقي ، الذي اوجده شيخ ابن العربي الفيلسوف ابن مسرة القرطبي الاندلسي. وقد تسربت مبادئ الاشراقيين الى المذهب المدرسي الاغسطيني Augustinian scholasticism فكان من رجاله اسكندر هال وروجر بيكون وريموند لُل . ثم انتقلت كافكار اوربية الى دانتي

فالنور عند كل من ابن العربي ودانتي « نور » وكل منهما يستعمل « الانعكاس » و « الشعاع » و «البروق» و « النورانية » للتعبير عن مراده . و « تجلي » هذا النور موصوف اذاً بنفس التشابيه والمجازات . كما ان مثل الدائرة ومركزها لاظهار علاقة الخلق مع الخالق — ومثل المرآة كتوضيح للعلاقة الحقير مع العظيم — شائعان في كتابات ابن العربي ودانتي

ولقد نسج دانتي ايضاً على منوال ابن العربي في خواص الارقام ففي الفتوحات المكية فصول مستفيضة في العدد وخواصه وما فيه من الشؤم او الخير. كذلك ترى دانتي قد حاكى محي الدين في الاعتقاد بالتدجيل والتنجيم كما حاكاهُ في تفسير الاحلام تفسيراً صوفيًّا . . . وكل من قابل «ترجمان الاشواق » الذي الفهُ ابن العربي بما كتبهُ دانتي لا شك انهُ يجد شبهاً كثيراً : فكل من الكاتبين يخلطان الشعر بالنثر . وقد بيّن دانتي رغبتهُ في شرح قصائده في الحب كان قد نظمها وعدد لذلك الاسباب كما فعل قبلهُ ابن العربي حين اعتزم شرح ترجمان الاشواق

وبعد موت بياتريس Beatrice محبوبة دانتي بيوم ذهب الى مكان منفرد (حسب روايته بنفسه) حيث التي بفتاة جميلة هام بها ولم يجسر على البوح بحبه فنظم هذا الحب اشعاراً (Convito, II, ia, 16; III, 8, 12) : كذلك ابن العربي حين ذهب الى مكة المكرمة (١٢٠١) هام بابنة رجل تعرف عليه (حسب روايته ايضاً) فاخذ ينظم الشعر في حبها . . .

وجملة القول ان اتصال اوربا بالاسلام مكن الادباء والشعراء والعلماء من الاقتباس كما ان تقاليد اوربا ايضاً اقتبست وتأثرت من تلك البيئة الاسلامية : وعليه فهذا المقال يثبت (١) اسبقية الآداب الاسلامية لغيرها في اوربا وبالتالي لدانتي أي انها وجدت قبل ان توجد تلك التقاليد او تلك الرواية . (٢) « المشابهة » بين هذه الآداب وما جاء به دانتي . (٣) اثبات « انتقال » هذه الافكار الى الغرب : حلقة متصلة من البحث : « واذن فنظرية أصل الرواية الالهية الاسلامي امر لا يمكن جحده »

جامعة بيروت الاميركية عبد اللطيف الطيباوي